﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: 189 - 190]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ذِكْرُ ابتداءِ الخلقِ بعدَ ذِكْرِ السُّؤالِ عن البعثِ تَنْبيهًا على القدرةِ على البعْثِ والإعادةِ

لَمَّا تقدَّمَ سؤالُ الكُفَّارِ عن السَّاعةِ ووَقتِها، وكان فيهم مَن لا يُؤمِنُ بالبعثِ؛ ذكَرَ ابتداءَ خَلقِ الإنسانِ وإنشائِه؛ تنبيهًا على أنَّ الإعادةَ مُمكِنةٌ، كما أنَّ الإنشاءَ كان مُمكِنًا، وإذا كان إبرازُه من العَدَمِ الصِّرْفِ إلى الوجودِ واقعًا بالفعلِ، فإعادَتُه أحرى أن تكونَ واقعةً بالفعلِ[1].

وأيضًا لَمَّا أمرَ تعالى بالنَّظَرِ في الملكوتِ الدَّالِّ على الوحدانيَّةِ، وقسَّمَ خَلْقَه إلى مؤمنٍ وكافرٍ، ونفى قُدرةَ أحدٍ من خَلْقِه على نَفعِ نَفسِه أو ضَرِّها؛ رجعَ إلى تقريرِ التَّوحيدِ، فقال تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: النَّفْسُ: الرُّوحُ، يُقال: خَرَجَتْ روحُهُ، أي: نَفْسُهُ[3]، وتُطلقُ أيضًا على الدَّم، ومعنى النَّفسِ حقيقةُ الشَّيءِ وجملتُهُ، وأصلُ (نفس) يَدُلُّ عَلَى خُرُوجِ النَّسِيمِ كَيْفَ كَانَ، مِنْ رِيحٍ أَوْ غَيْرِهَا[4]، وَالنَّفْسُ قِوَامُهَا بِالنَّفَسِ، والمعنى هنا: من آدمَ[5] عليه السلام.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 244/5.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 427/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 244/5.
(3) الجوهري، الصّحاح: (نفس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(5) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 351/1، والزَّبيدي، تاج العروس: (نفس).

2) ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾: من السَّكَن: الاستقرارُ في المساكن، وهي البيوت ونحوها، والعَرَبُ تسمِّي المَرْأَة سكنًا ولِباسًا وإزارًا[1]؛ لأنَّ كلًّا من الزَّوجين يَسكُن إلَى صَاحبهِ ويُلابِسُه[2]، وأصلُ (سكن): يدلُّ على خلافِ الاضْطرابِ والحَركةِ[3]، فهو دالٌّ على الاستقرار[4]، ومِنْهُ قولُهم لكُلِّ شَيْءٍ مَاتَ: قد سَكَنَ[5]؛ لذهاب حركتِه، ومِنْهُ سُمِّيَتِ النَّارُ: سكَنًا؛ لأنَّها مُعِينةٌ على الاستقرارِ والإقامةِ؛ إذْ بها يُعدُّ الطَّعامُ، ويُستدفأُ، ويُستضاءُ[6]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فِيهِ[7]، ومعنى ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾: ليأوي إليها[8].

3) ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: من الغَشْي والغِشْيان، وأصلُ (غشَّى): يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ[9]، وسُمِّي يومُ القيامَةِ غاشيةً؛ لأنَّها تغشَى الخلْقَ بإفزَاعِهَا[10]، وقد تُطْلَقُ الْغَاشِيَةُ على النَّار؛ لكونِهَا تَغْشَى وُجُوهَ الْكفَّار[11]، كما قال اللَّهُ تعَالَى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 50]، وقولُ اللَّه سُبحَانَهُ: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ أَيْ: يُلْقِي النُّعَاسَ عَلَيْكُمْ كَالْغِطَاءِ[12].

ومعنى ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: تدثَّرها لقضاء حاجته منها[13].

4) ﴿حَمَلًا خَفِيفٗا﴾: الحَمْل - بفتح الحاء - ما يُحْمَل في البطن، والحَمِيل: الولَد في بطن أمِّه، أي: ما كان في بطنِ الزَّوجةِ مِن منيِّ زوجِها[14]، وذلك أوَّلُ الحَمْلِ[15]، لا تجدُ المرأةُ له أَلَمًا؛ لأنَّ المَاءَ خَفِيفٌ على المَرْأَة؛ إذا حَمَلَتْ، والحِمْل - بالكسر - ما حُمِل (على ظهر أو نحوه) ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72] "، وَأصلُ (حَمَلَ): يَدُلُّ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سكن) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 93.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(7) ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 204/13.
(9) السجستاني، غريب القرآن، ص: 141، والرّاغب، المفردات، ص: 607، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 123، وابن الهائم، التبيان، ص: 214، والكفوي، الكليات، ص: 320.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (غشو).
(12) الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن، ص: 70، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حمل).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 204/13.
(14) الزّبيديّ، تاج العروس: (حمل).
(15) الجوهري، الصّحاح: (حمل).

على إقْلالِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُهُ حَمْلًا، والخَفِيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ[1].

5) ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: من المرور: استرسال اجتيازيٌّ، وفيه امتداد الوجود إلى مكان آخر كالاطرادي، أي: استمَرَّت به، وقعَدَت، وقامَت، ولم يُثقِلْها الحَمْلُ[2]، وأصلُ مرَّ يدلُّ على مُضِيِّ شَيْءٍ، يُقالُ: مَرَّ الشَّيْءُ يَمُرُّ؛ إذَا مَضَى، وَمَرَّ السَّحَابِ: انْسِحَابُهُ وَمُضِيُّهُ[3].

6) ﴿أَثْقَلَت﴾: من الثِّقَل - كعِنَب: نقيضُ الخِفَّة، والثِّقْل - بالكسر: الحِمْل الثَّقيل، ومِثْقال الشَّيء: ما آذَن وزنَه فثقُل ثِقَله[4]، أَيْ: صارتْ ذاتَ ثِقْلٍ بكِبَرِ الولَدِ في بَطنِها، يُقال: امرأةٌ مُثْقِلٌ، وَقد أَثْقَلَتْ؛ إذا عَظُمَ مَا فِي بَطْنِها[5]، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّة[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هو الَّذي أوجدكم - أيُّها الرِّجالُ والنِّساء - من نفسٍ واحدةٍ هي آدمُ ﷺ وخلقَ من آدمَ ﷺ زوجتَه حوَّاءَ، ليأنسَ إليها، ويطمئنَّ بها، واستمرَّتْ سُلالتُهما في الوجود، فلمَّا جامَعَ زوجٌ زوجتَهُ؛ حملَتْ ماءً خفيفًا لا تشعرُ به؛ فقامَت به، وقعدَت، وأتمَّت الحملَ، واستمرَّت على حملِها هذا تمضي في حوائجِها لا تَجِدُ ثقلًا، فلمَّا قَرُبت ولادتُها، وأثقَلَت؛ دعا الزَّوجان ربَّهما قائلين: لئن أعطيتنا - يا ربَّنا - ولدًا صالحَ الخِلقَةِ تامَّها؛ لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكرين لِنعمِكَ، فلمَّا استجابَ اللهُ دعاءهما، وأعطاهما ولدًا صالحًا، كما دَعَوَا؛ صَيَّرَا للّه شركاء

ذِكْرُ أصلِ خَلْقِ الإنسانِ والمِنَّةِ عليه بالزَّوجةِ والولدِ، وبَيانُ شِذْرٍ كثيرٍ من النَّاسِ في مساواةِ الخالقِ بغيرِهِ

(1) السجستاني، غريب القرآن، ص: 190، والرّاغب، المفردات: (ثقل)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3، وابن الهائم، التبيان، ص: 214.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 175، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 190، والرّاغب، المفردات، ص: 764، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 123، وابن الهائم، التبيان، ص: 214.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرَّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مرّ).

(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقل).

(5) السجستاني، الفرق، ص: 245.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 619/10، وابن فارس، مقاييس اللغة: 382/1، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3.

في عطيَّتِهِ الكريمةِ، فَعَبَّدَا ولدَهما لغيرِهِ، فتعالى اللهُ، وتنزَّهَ عن كلِّ شريكٍ، فهو المنفرد بالربوبيَّةِ والألوهيَّةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الآيةِ البيانيُّ ممَّا قبلَها:

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، مَسُوقًا لبيان ما يقتضي التَّوحيدَ الذي هو المقصدُ الأعظمُ؛ ولبيان كمالِ عظمِ جناية الكفرةِ في جراءتهم على الإشراكِ بتذكيرِ مبادي أحوالهم المُنافية له[2].

إبطالُ الشِّركِ ببيانِ ما يقتضي التَّوحيدَ وببيان عِظَمِ جنايةِ الشِّركِ

حيثُ عادَ بها الكلامُ إلى تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ، وإبطالِ الشِّركِ من الذي سلفَ ذِكرُهُ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172] الآية، وليست من القولِ المأمورِ بهِ في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188]؛ لأنَّ ذلك المقولَ قُصِدَ منه إبطالُ الملازمةِ بينَ وصفِ الرِّسالةِ وعِلمِ الرَّسولِ بالغيبِ، وقد تمَّ ذلك، فالمُناسبُ أن يكونَ الغرضُ الآخرُ كلامًا موجَّهًا مِنَ اللهِ تعالى إلى المشركين لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بفسادِ عقولِهم في إشراكِهم وإشراكِ آبائِهم[3]، أي: إنَّ الَّذي يستحقُّ العبادةَ والخضوع، والَّذي عندَه مفاتحُ الغيبِ هو اللهُ الَّذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ هي نفسُ أبيكم آدمَ[4].

غرضُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ عنِ الذَّاتِ العليَّةِ:

بيانُ تفرُّدِهِ سبحانه بالخَلْقِ تقريرًا للتَّوحيدِ وتأكيدًا لهُ في النَّفسِ

قولهُ: ﴿هُوَ﴾، أي: وحدَهُ، فمِن دلائلِ قُدرتِهِ وموجباتِ توحيدِهِ، وإفرادِهِ بالعبادة أنَّه خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ، فافتتحَ الكلامَ

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 238.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 452/5.

بالضَّمير مُقرِّرًا للتَّوحيد مؤكِّدًا لأمرِه[1]، فالضَّميرُ (هو) عائدٌ إلى الذَّاتِ العليَّةِ، والإشارةُ إليه بالضَّميرِ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ مُقرَّرٌ لا يتطرَّق إليه شكٌّ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

تفخيمُ شأنِ الخالقِ العظيمِ المتفرِّدِ بالخلقِ والمُلْكِ

قولُه: ﴿ٱلَّذِى﴾: أي: العظيمُ الشَّأنِ[2]، فإيقاعُ الموصولِ خبرًا في قَولِه: هُوَ الَّذِي لِتَفخيمِ شأنِ المبتدأ، أي: هو ذلك العظيمُ الشَّأنِ الَّذي خلقَكم جميعًا وحدَه مِن غَيرِ أن يكونَ لِغيرِه مدخلٌ في ذلك أصلًا بوجهٍ مِن الوجوهِ[3]، فَمِن شأنِ الاسم الموصولِ أن يكونَ مُبهمًا لذلك يقعُ التَّعريفُ به من خلال جملةِ صلةِ الموصولِ الَّتي ترفعُ عنه الإبهامَ، ففيهِ تشويقٌ إلى معرفة صاحبِه من خلالِ التَّعريفِ به على مرحلتَيْن.

مَن هم المخاطَبونَ في هذه الآيةِ؟

بيانُ عُمومِ الخطابِ لكلِّ مَن يَصلحُ للخِطاب وإنْ كان الخِطابُ لأهل مكَّةَ ابتداءً

هذه الآيةُ تعجيبٌ للمشركين من أهلِ مكَّةَ مِن إشراكهم باللّه شيئًا مع عِلْمِهم بأنَّه خالقُهم ورازقُهم[4]، فهو لأهل مكَّةَ بالدَّرجة الأولى لكونِهم هم المخاطَبون بالوحي ابتداءً، وقيل: إنَّ ضميرَ الخِطابِ في خَلقِكم للمشركين مِنَ العَربِ؛ لأنَّهم المقصودُ مِن هذهِ الحُجَجِ والتَّذكير، وإن كان حكمُ هذا الكلامِ يَشمَلُ جميعَ البشرِ[5]، وقيل: إنَّ الخطابَ بـ﴿خَلَقَكُم﴾ عامٌّ لكلِّ من يصلحُ خطابُه، والمعنى: أنَّكم تفرَّعتم مِن آدمَ عليه السلام[6].

معنى (من) في قولِهِ: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾:

بيانُ تمامِ القُدرةِ على ابتداءِ الخَلقِ ممَّا يُدَلِّلُ على القُدرةِ على إعادتِه

(من) في قولِه: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ابتدائيَّة[7]، أي: خلقَها ابتداءً

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(2) البروسوي، روح البيان: 294/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 303/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) السيواسي، عيون التفاسير للفضلاء السماسير: 98/2.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 244/5.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.

من ترابٍ، وهي آدمُ - [1]عليه السلام، وفيها إيماءٌ إلى أنَّه من قَدِرَ على اختراعِ حيٍّ من شيءٍ ليس له أصلٌ في الحياة، كان على إعادته حيًّا - من ذلك الشَّيءِ بعدَ أن صارَ له أصلٌ في الحياةِ - أقدرَ[2].

نكتةُ تنكيرِ النَّفسِ ووصفِها بالواحدةِ بطريقِ الإدماجِ:

تضمينُ المعنيَين التَّفسيريَّيْن في كلمةٍ واحدةٍ شاملةٍ لهما

صدَّر اللهُ ﷻ هذه الآيةَ بالتَّذكيرِ بنعمةِ خلقِ النَّوعِ المبتدَأِ بخلقِ أصلِه، وهو آدمُ وزوجُه حواءُ تمهيدًا للمقصودِ، وتعليقُ الفعلِ باسمِ الجمعِ في مثلِه، في الاستعمالِ يقعُ على وجهين: أحدُهما: أن يكونَ المرادُ الكُلَّ المجموعيَّ، أي: جملةُ ما يصدقُ عليه الضَّميرُ، أي: خَلَقَ مجموعَ البَشرِ من نفسٍ واحدةٍ، فتكونُ النَّفسُ هي نفسُ آدمَ الَّذي تولَّد منهُ جميعُ البشرِ، فالمُرادُ بالنَّفسِ الواحدةِ: الجرثومةُ أو السُّلالةُ التي تكاثَرَ منها هذا النَّسلُ، وتوالدَ، كمَا تتكاثَرُ، وتتوالدُ حبَّاتُ السُّنبلةِ من حبَّةٍ واحدةٍ، ثُمَّ تكونُ من تلك الحبَّاتِ سنابلُ، ومِن تلك السَّنابلِ حبَّاتٌ، ومِن الحبَّاتِ سنابلُ[3].

وعلى هذا فَتَأْنِيثُ الْوَصْفِ بِقَوْلِه: ﴿وَاحِدَةٍ﴾، مَعَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ بِهِ مُذَكَّرٌ، وَهُوَ آدَمُ نَظَرًا إِلَى تَأْنِيثِ لَفْظِ النَّفْسِ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا مُذَكَّرًا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُهُ[4]:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى *** وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَاكَ الْكَمَالِ[5]

وثانيهما: أن يكونَ المرادُ الكُلَّ الجمعيَّ، أي: خلقَ كلَّ أحدٍ منكم من نفسٍ واحدةٍ، فتكون النَّفسُ هي الأبَ، أي: أبو كُلِّ واحدٍ من المخاطَبين، على معنى: أنَّكم كلَّكم من طينةٍ واحدةٍ وجنسٍ

(1) الشربيني، السّراج المنير: 623/1.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 537/5.
(4) هذا البيت من البحر الوافر، لعُقَيبة بن هبيرة الأسدي. يُنظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 280/2.
(5) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 354/6.

واحدٍ، على نحو قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13]، وقولِه: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39].

ولفظُ نفسٍ واحدةٍ يحتملُ المعنيين؛ لأنَّ في كِلَا الخَلقين امتنانًا، وفي كليهما اعتبارًا واتِّعاظًا.

ووُصِفَتِ النَّفسُ بواحدةٍ على أسلوبِ الإدماج بين العِبرةِ والموعظةِ؛ لأنَّ كونَها واحدةً أدعى للاعتبارِ؛ إذ ينسلُ مِنَ الواحدةِ أبناءٌ كثيرون حتَّى رُبَّما صارتِ النَّفسُ الواحدةُ قبيلةً أو أمَّةً، ففي هذا الوصفِ تذكيرٌ بهذهِ الحالةِ العجيبةِ الدَّالَّةِ على عِظَمِ القُدرة وسَعةِ العلمِ حيثُ بثَّهُ من نفسٍ واحدةٍ رجالًا كثيرًا ونساءً[1].

دلالةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾:

بيانُ اختلافِ الجنسين وكونِ الأنثى مُتولِّدةً مِنَ الذَّكرِ وأنَّه أصلٌ لها

قولُه: ﴿وَجَعَلَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَكُم﴾ داخلٌ في حكمِ الصِّلةِ[2]، فلمَّا كان آدمُ عليه السلام بعد صيرورتِه لحمًا ودمًا أقربَ إلى السَّببيَّةِ لخَلْقِ ذاتِ لحمٍ ودمٍ منه على سبيلِ النَّزعِ والفصلِ[3]؛ قال مُعبِّرًا بالواو؛ لأنَّه كافٍ في نفي الشِّرك الذي جاءَ السِّياقُ للتَّحذيرِ منه، وبيانِ اختلافِ الذَّكرِ عن الأنثى؛ لأنَّ تأخيرَ المُسبَّباتِ عن الأسبابِ مُدَّةً أدلُّ عليه لأنَّهُ خِلافُ الأصلِ[4].

سِرُّ استخدامِ الجَعْلِ دونَ الخَلْقِ:

الدَّلالةُ على الإنشاءِ والتَّصييرِ مع الإشارةِ إلى الزَّوجيَّةِ

قولُه: ﴿وَجَعَلَ﴾ دونَ (خلقَ)؛ لأنَّ الجَعْلَ إظهارُ أمرٍ عن سببٍ وتَصْييرٍ[5]؛ فالجَعْلُ إمَّا بمعنى التصييرِ، فقولُه تعالى: ﴿زَوۡجَهَا﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.
(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 281/10.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.

مفعولُه الأوَّلُ، والثَّاني هو الظَّرفُ المقدَّمُ، وإمَّا بمعنى الإنشاءِ، والظَّرفُ متعلِّقٌ بجعل[1].

أو عبَّر في جانبِ الأنثى بفعلِ (جَعَلَ)؛ لأنَّ المقصودَ جَعْلُ الأنثى زوجًا للذَّكر، لا الإخبارُ عن كونِ اللهِ خلقَها؛ لأنَّ ذلك قد عُلِمَ من قولِه: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2].

توجيهُ المُتشابِهِ الواردِ في القرآنِ مع هذا الموضعِ:

التَّعبيرُ بالجَعْلِ للدَّلالةِ على الحالةِ الدَّائمةِ والسَّلالةِ المتتابعةِ والتَّعبيرُ بالخَلْقِ للإشارةِ إلى بَدْءِ الخلقِ

التَّعبيرُ بالفعلِ (جعل) في: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يدلُّ على الحالةِ الدَّائمةِ في السُّلالاتِ البشريَّةِ، وهي أنَّ الذَّكَرَ من هذا النَّوعِ يَسكن للزَّوجِ الأنثى من هذا النَّوعِ، بالجعلِ الرَّبَّانيِّ في نظامِ الخلقِ المُتتابِعِ.

أمَّا بَدْءُ اشتقاقِ خَلْقِ حوَّاءَ من آدمَ ﷺ فقد جاءَ التَّعبيرُ عنهُ في قولِ اللهِ ﷻ في سورةِ النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النِّساء: 1]، فَبَدءُ خَلْقِ الأُنثى الأولى، كان اشتقاقًا مِنَ الذَّكرِ الأوَّلِ، ثُمَّ سارتِ السُّلالاتُ على أنَّ الذُّكورَ تَحملُ ذُرِّيَّاتِ الإخصابِ ذُكورَها وإناثَها، واقتضى نظامُ التَّكوينِ الرَّبَّانيِّ جعْلَ الذُّكورِ يسكنونَ إلى الإناثِ أزواجًا لهم، لتكون الإناثُ محاضِنَ تَنْبُتُ فيها بذورُ الذُّرِّيَّةِ التي يزرعُها الذُّكورُ فيهنَّ، ففرَّقَ اللهُ ﷻ بين أصلِ الخلقِ، وبين الجَعْلِ بعدَ الخلقِ.

معنى (من) ودلالتُها في ﴿مِنْهَا﴾:

احتمالُ المعنيين التَّفسيريَّين للجَعْلِ مع تَرجيحِ الإنشاءِ والتَّصييرِ

و(مِن) في قولِه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ للتَّبعيضِ، والمرادُ: مِن نوعِها[3]، أي: جسدُها لما يُروى أنَّه سبحانه خلقَ حوَّاءَ من ضِلْعِ آدمَ ﷺ اليُسْرى، والكيفيَّةُ مجهولةٌ لنا، ولا يُعجِزُ اللهَ تعالى شيءٌ[4]، ويحتملُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9، والخفاجي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 417/4.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.

أن تكونَ ابتدائيَّةً أو بيانيَّةً، أي: من جنسِها وهذا كقولِه سبحانه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النَّحل: 72، الشُّورى: 11][1].

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿مِنْهَا﴾:

تَعيينُ أصلِ الجَعْلِ وتخصيصُ تَعَلُّقِهِ بالنَّفسِ الواحدةِ

قولُه: ﴿مِنْهَا﴾، أي: وجعلَ مِنَ النَّفسِ الواحدةِ، أي: لا مِن غيرِها[2]، وهو آدمُ عليه السلام على المشتهرِ، حيثُ تعيَّن أنَّ هذا الجَعْلَ كان مِنَ النَّفسِ الواحدةِ الَّتي خُلِقَت ابتداءً، فهو منها لا مِن غَيرِها.

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿مِنْهَا﴾ على المفعولِ:

بيانُ تمامِ الامتنانِ بكونِ الأنثى من جنسِ ذَكَرِها مع الاعتناءِ بالمُقَدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤَخَّرِ

قولُه: ﴿مِنْهَا﴾ صفةٌ لـ ﴿زَوْجَهَا﴾ قُدِّمت على الموصوف للاهتمامِ بالامتنانِ بأنْ جَعَلَ الزَّوجَ - وهو الأنثى - من نوعِ ذَكَرِها، وهذه الحكمةُ مُطَّردةٌ في كلِّ زَوجَينِ من الحيوانِ[3]، فالظَّرفُ ﴿مِنْهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿وَجَعَلَ﴾، وقُدِّم على المفعولِ الصَّريحِ ﴿زَوْجَهَا﴾ للاعتناءِ بالمُقَدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ[4]، ويحتملُ أن يكونَ تقديمُها للتَّخصيصِ على معنى: منها لا مِن غيرِها.

نكتةُ إضافةِ الزَّوجِ إلى النَّفسِ في ﴿زَوْجَهَا﴾:

بيانُ التَّجانسِ بينَ النَّفسِ وزوجِها إشارةٌ إلى معنى التَّزاوجِ والتَّلاقحِ

يُلاحظُ هنا من النَّاحيةِ البيانيَّةِ أنَّه عليه السلام ذكَرَ النَّفسَ في السِّياقِ بأنَّها مُؤَنَّثَةُ الضَّميرِ ﴿وَاحِدَةٍ﴾، فناسبَ أن يقولَ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، فلمَّا بَيَّنَ اللهُ عليه السلام ثمرةَ ذلك التَّجانُسِ، وهو التَّلاقحُ والتَّزاوجُ بينَ الذَّكرِ والأنثى ليبقى الوجودُ، وليكونَ ذلك التَّجانُسُ مُنتِجًا أقصى غايتِه[5].

---

(1) عبد القادر ملاحويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 467/1، والشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4513/8.

(2) ابن جرير، جامع البيان: ت شاكر: 304/13، والبقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.

(5) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.

معنى اللَّامِ ودلالتُها في ﴿لِيَسْكُنَ﴾:

بيانُ مِنَّةِ إيناسِ الـزَّوجِ بزوجتِهِ وأُلْفَتِهِ بها

قولُه: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، يعني: ليطْمئِنَّ إليها، ويجامِعَها[1]، فهو تعليلٌ لِما أفادَتْهُ (مِن) التَّبعيضيَّةُ، أي: جعَلَ مِن نوعِ الرَّجُلِ زَوجَهُ ليألَفَها، ولا يجفُوَ قُربَها، ففي ذلك مِنَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ ممارَستِها؛ لينساقَ إلى غِشْيانِها[2].

فهي عِلَّةٌ غائيَّةٌ للجعلِ للإيناس والاطمئنان[3]، وجعلِ علَّة السُّكون أنَّها مِنْهُ، ولو كان علَّةَ الحُبِّ حُسْنُ الصُّورة الجسديَّة؛ لوجب ألَّا يَسْتَحْسِنَ الأنقصَ من الصُّور، ونحن نجدُ كثيرًا مِمَّن يُؤْثِرُ الأدنى، ويعلمُ فضلَ غيرِه، ولا يجدُ محيدًا لِقلبِه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاقِ لما أحبَّ المرءُ مَن لا يساعدُهُ، ولا يُوافِقُهُ، فَعلِمْنا أنَّه شيءٌ في ذات النَّفسِ، ورُبَّما كانتِ المحبَّةُ لسببٍ مِنَ الأسبابِ، وتلك تفنى بفناءِ سببِها[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في: ﴿لِيَسْكُنَ﴾:

الـدَّلالـةُ على اسـتـمـرارِ السُّكونِ ودوامِهِ

أي: ليألَفها، ويَسْكُنَ بها على وجهِ الدَّوامِ والاستمرارِ، ويطمئِنَّ إليها، ويميلَ، ولا ينفرَ منها؛ لأنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أميلُ وبِهِ آنسُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: 21]، فلا أُلفةَ بَينَ زَوْجين أعظمُ ممَّا بين الزَّوجين[5]، وصِيغَةُ المُضارعِ دَالَّةٌ على الاستِمْرارِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالسَّكنِ عن الطُّمأنينةِ والأُنْسِ:

تصويرُ الزَّوجةِ وأُنسِ زوجِها بها بمحلِّ السُّكونِ والرُّكون

السُّكونُ هُنا مجازٌ في الاطمئنانِ والتَّأَنُّس، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّةِ تشبيهًا للزَّوجة بمحلِّ الطُّمأنينةِ والسُّكون،

(1) السمرقندي، تفسير السمرقندي: 574/1.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 211/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) ابن القيم، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص: 75.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3، والزمخشري، الكشاف: 186/2.

فقد جعلَها اللهُ من نوعِ الرَّجل زوجَه ليألفَها، ولا يجفوَ قُربَها؛ لأنَّ النَّفسَ إلى الجنسِ أَمْيَلُ، وعليه أَقْبَلُ، ولا سيَّما إن كان بعضًا، ألا ترى إلى محبَّةِ الوالدِ لولده والقريبِ لقريبه، فالسُّكونُ والمحبَّةُ أبلغُ، كما يسكنُ الإنسانُ إلى ولدِه، ويحبُّه محبَّةً لكونه بَضْعَةً منه[1]، وإنَّما منعَ سبحانه من نكاحِ الأصلِ والفرعِ لما في ذلك مِنَ الضِّرارِ وغيره من الحِكَمِ الكبارِ، فيغشاها عندما يَسْكُنُ إليها، فيحصُلُ الحَبَلُ والولادةُ، فتتفرَّعُ النُّفوسُ من تلك النَّفسِ[2]، ففي ذلك مِنَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ مُمارستِها لينساقَ إلى غشيانِهَا، فلو جعلَ اللهُ التَّناسُلَ حاصلًا بغير داعي الشَّهوةِ؛ لكانت نفسُ الرَّجلِ غيرَ حريصةٍ على الاستكثار من نسلِه، ولو جعلَه حاصلًا بحالةٍ أَلَمٍ؛ لكانت نفسُ الرَّجل مُقِلَّةً منهُ، بحيثُ لا تَنْصَرِفُ إليه إلَّا للاضطرار بعد التَّأمُّلِ والتَّردُّد، كما ينصرفُ إلى شُرْبِ الدَّواء ونحوه[3]، فَعِلَّةُ سُكونِ الرَّجُلِ إلى امرأتِه كَونُها مِن جِنسِه وجوهَرِه، قال اللهُ تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] فالجِنسُ إلى الجنسِ أميَلُ، وبه آنَسُ[4].

عِلَّةُ استخدامِ التَّذكيرِ في الضَّميرِ المستَكِنِّ في قولِهِ: ﴿لِيَسْكُنَ﴾:

بيانُ أنَّ المُرادَ مِنَ النَّفسِ هُنا آدمُ عليه السلام ونِسْبَةُ السُّكونِ إليه

لَمَّا كان المُرادُ بالنَّفس آدمَ عليه السلام على الأرجحِ، وكان الزَّوجُ يُقال عن الذَّكر والأنثى؛ استخدمَ ضميرَهُ في المذكَّر ذاكرًا عِلَّةَ الجعْلِ بقوله: ﴿لِيَسْكُنَ﴾[5]، فالضَّميرُ المُسْتَكِنُّ في ﴿لِيَسْكُنَ﴾ يعودُ إلى النَّفس، وكان الظَّاهرُ تأنيثَهُ؛ لأنَّ النَّفسَ مِنَ المؤنَّثاتِ السَّماعيَّةِ، ولذا أُنِّثت صِفتُها، وهي قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ إلَّا أنَّه جاء مُذكَّرًا هنا باعتبار أنَّ المُرادَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 186/2، والقاسمي، محاسن التأويل: 234/5.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 245/5، وابن القيم، زاد المعاد: 247/4.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/ - 190 189.

منَ النَّفسِ هُنا آدمُ ﷺ فكان التَّذكيرُ أحسنَ طِباقًا للمعنى[1]، كما أنَّه ذُكِّرَ الضَّميرُ ذهابًا إلى المعنى؛ ليُناسِبَ قولَهُ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾[2].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَمَّا﴾:

التَّفريعُ عمَّا سبقَ بذكرِ لازمِ السُّكونِ، والميلُ هو الغِشْيانُ

الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ عاطفةٌ[3] تفريعيَّةٌ؛ حيثُ فرَّعَ عمَّا سبقَ بفاء التَّعقيب عمَّا يحدث عن بعض سكونِ الزَّوجِ إلى زوجهِ، وهو الغِشْيان[4]، فقال مُؤذِنًا بقُربِ غِشْيانِها بعدَ جعْلِها سَكَنًا ﴿فَلَمَّا﴾، وتقديرُ الكلام: فَسَكَنَ إليها، فَمَالت نفسُه إليها، فَلَم يَتَمالكْ أن غَشِيَها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾[5].

ولَمَّا كان السُّكونُ مُفسَّرًا بالميلِ، وهو مُتناوِلٌ للميل الشَّهوانيِّ الذي هو مُقدِّمَةُ التَّغشِّي لا سيَّما وقد أُكِّدَ بالفاء كانَ الطّباقُ في نِسْبتِهِ أيضًا إليْهِ وإنْ كانَ مِنَ الجانِبَينِ[6].

معنى (لمَّا) ودلالتها في ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾:

بيانُ شرطيَّةِ التَّغشِّي والجماع لوقوع الحَمْل ربطًا للسَّبَبِ بِمُسَبَّبِهِ

(لمَّا) حينيَّةٌ شرطيَّة بمعنى حِينَ، وهي مخصوصة بالدُّخول على الفعل الماضي، وهي مع تضمُّنها معنى الشَّرط غيرُ جازمة[7]، أي: حين اتَّصل بها زوجها، اتِّصال الرَّجل بالمرأة عَلِقَتْ منه بالجنين الذي ولدته بعد أن تَمَّ حَمْلُهُ في بطنها[8].

بلاغةُ الكنايةِ بصيغة التَّفعُّلِ في قوله: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾:

الدَّلالةُ على التَّكلُّف في الجُهْدِ عند الفعل بمقتضى الفطرة مع الإشارة إلى السِّتر بمقتضى الشَّريعة

قولُه تعالى: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾، أي: أتاها، كغَشِيَها، ويزيدُ ما تُعطيه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 452/5.
(2) الشهاب، حاشيته على تفسير البيضاوي: 243/4، والمظهري، التفسير المظهري: 442/3، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتاهما على تفسير على البيضاوي: 569/8.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 508/3.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(7) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 508/3، ومحمود صافي، الجدول: 144/9.
(8) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 537/5.

صيغةُ التَّفعُّل مِن جُهدٍ، لإفادةِ قُوَّةِ التمَكُّنِ مِن ذلك؛ لأنَّ التكَلُّفَ يقتضي الرَّغبةَ[1]، وهو كنايةٌ نزيهةٌ عن أداءِ وظيفةِ الزَّوجيَّة، تشيرُ إلى أنَّ مُقتضى الفِطرةِ وأدبَ الشَّريعةِ فيها، السَّترُ[2].

دلالةُ التَّذكير في نسبة التَّغشي في قوله: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾:

التَّغشِّي منسوبٌ إلى الذَّكر لا محالة وإن كان من الجانبين، وفيه ذوقيَّةٌ رائعة في جعْلِ المرأة مطلوبةً لا طالبة، مرغوبةً لا راغبة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تكثير النَّوْعِ علَّةُ المؤانسة، كما أنَّ الوحدة علَّةُ الوحشة، وأيضًا لمَّا جعل المخلوق أوَّلًا الأصلَ؛ كان المناسبُ أن يكون جعْلُ الزَّوج لسكونه بعد الاستيحاش لا العكس، فإنَّه غير ملائم لفظًا ومعنى[3].

الإيماءُ إلى تكثيرِ النَّوعِ في كونه عِلَّةً للمُؤانسة

براعةُ أسلوبِ الاستخدامِ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾:

قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ التغشِّي هُنا يقع بَيْنَ الذَّكر والأنثى، وأشارت الآيةُ أنَّ الذي تَغَشَّى عند اللِّقاء المُنْتِج بينهما هو الذَّكر، وأنَّ التي تُغْشى هي الأنثى، وبذلك تكون الثَّمرةُ الإنسانيَّة هي نتيجةُ ما بينهما؛ ولذا عاد الضَّميرُ مُذَكَّرًا، فَتَغَشَّىها هو، فكان بينهما ما أوجبته الفِطرة[4]، فحملت هيَ، فعاد الضَّميرُ بعد ذلك إليها، ففي الكلام استخدامٌ في ضَميريْ تَغَشَّاها وما بعده[5].

جـوازُ حَـمْـلِ مـعـنـى الآيـة على التَّفْسيرَيْنِ الـسَّـابـقـيـن في معنى النَّفس

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿حَمْلًا﴾ بعد ﴿حَمَلَتْ﴾:

انتصابُ ﴿حَمْلًا﴾ يكون على المصدريَّةِ، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ إذا مشت به، أو على كونه مفعولًا به، أي: حملت محمولًا خفيفًا، وهو ما في البطن مِنَ النُّطفة والجنينِ قبل أن يكبرَ ويثقل، ويكون المُرادُ بالخِفَّة عندئذٍ عدمَ التَّأذِّي به[6].

الإشارةُ إلى خِفَّةِ الـحَـمْـلِ صفةٌ في نفسه وحالٌ لأمِّه

(1) الزمخشري، الكشاف: 186/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 212/9.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 432/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 244/5، وإسماعيل حقي، روح البيان: 294/3.

ولا يخفي ما في جناسِ الاشتقاق مِنَ الإشارة إلى أثرِ الحَمْل في الفعل، وأثره على سلوك الحامل، خفيفًا كان أو ثقيلًا، كلًّا حسبَ درجتِهِ، فحروفُ الفعل (حمل) هي حروف اسم المصدر نفسه.

غرضُ وصفِ الحملِ بالخفَّةِ:

حكايةُ الحالةِ التي تحصلُ للمرأةِ عند تَطَوُّرِ الجنين زيادةٌ في التَّفَكُّرِ والاعتبارِ

يعني بخفَّة الحمل: الماء الذي حملتْهُ حواء في رحمها من آدم أنَّه كان حملًا خفيفًا، وكذلك هو حَمْل المرأة ماءَ الرَّجل خفيفٌ عليها[1]، ووصْفُ الحمل بـ(خفيفًا) إدماجٌ ثانٍ، وهو حكاية للواقع، فإنَّ الحمل في مبدئه لا تجد منه الحاملُ ألمًا، وليس المرادُ هنا حملًا خاصًّا، ولكنَّه الخبرُ عن كلِّ حمْلٍ في أوَّلِه؛ لأنَّ المُرادَ بالزَّوجين جنسُهما، فهذه حكايةُ حالةٍ تحصل منها عِبرة أخرى، وهي عِبرة تَطوُّر الحَمْلِ كيف يبتدئ خفيفًا كالعدم؟ ثُمَّ يَتزايد رويدًا رويدًا حتَّى يَثْقُلَ[2]؛ لأنَّه عند إلقاءِ النُّطفةِ أخفُّ منه عند كونهِ عَلَقَةً، وعند كَوْنِهِ علقةً أخفُّ منه عند كونه مُضْغَةً، وعند كونه مضغة أخفُّ ممَّا بعده، وقيل: إنَّه خفَّ عليها هذا الحمل من ابتدائهِ إلى انتهائه، ولم تجد منه ثِقَلًا، كما تجده الحواملُ من النِّساء لقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾:

تصويرُ خِفَّةِ الحَمْلِ وعدمِ التَّأذِّي به بحال من يذهبُ ويجيء بخفَّةٍ ويُسْرٍ

أي: استمرَّت به، وقامت، وقَعَدَتْ به، ولم يُثقلها[4]، وأخذتْ، وتركت، ولم تَكْتَرِثْ بحَمْلها، فمرَّت من المرور بمعنى الذَّهاب والمُضي لا من المَرِّ بمعنى الاجتيازِ والوصولِ[5]؛ لأنَّ حقيقةَ المُرُورِ: الاجْتِيَازُ، وَيُسْتَعَارُ لِلتَّغَافُلِ وَعَدَمِ الاكْتِرَاثِ لِلشَّيْءِ من باب الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فالمرور مشبَّهٌ به، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 97/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 312/2، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 629/2.
(4) البغوي، تفسير البغوي: 257/2.
(5) إسماعيل حقي، روح البيان: 294/3.

عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يُونس: 72]، أَيْ: نَسِيَ دُعَاءَنَا، وَأَعْرَضَ عَنْ شُكْرِنَا؛ لِأَنَّ الْمَارَّ بِالشَّيْءِ لَا يَقِفُ عِنْدَهُ، وَلَا يُسَائِلُهُ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: 72].

فمعنى ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: لم تتفطَّن لَهُ، ولم تُفَكِّر في شأنه، وكل هذا حكايةً للواقع[1]، إعلامًا بأنَّ أمرها فيه كان على عادةِ النِّساء التي نعرفها[2].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِهِۦ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، أي: كانت تنتقل به، فـ(مرَّت) مضمِّنة معنى (انتقلت) أي: إنَّها كانت مع هذا الحَمْلِ الخفيف تَروح، وتغدو، وتتقلَّب في أمورِ بيتها، وفي شؤونِها[3]، فهي تتحرَّك حركةَ حياتِها قيامًا وقُعودًا، ولم يعطِّلها عن المشي ذهابًا ورجوعًا إلى أن تثقل، وتشعرَ بالحمل في شُهورِهِ الأخيرة[4].

تحقيقُ معنى خِفَّتِهِ عليها في أوَّل حَمْله

فقولهُ: (به) تحقيقٌ لمعنى خفَّته، وأنَّه لم يمنعْها مِنَ القيام والقعود والنُّزول والصُّعود[5].

دلالةُ الفاء في ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ عاطفةٌ لتعقيب حال الخِفَّةِ بحال الثِّقَل، أي: فلمَّا صار ما في بطنها من الحملِ الَّذي كان خفيفًا ثقيلًا، ودنت ولادتُها حين كَبُرَ في بطنها، فحينئذٍ صار في قلوبهما الشَّفقةُ على الولد، وعلى خروجهِ حيًّا، صحيحًا، سالمًا لا آفةَ فيه ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾[6].

تعقيبُ حال الخِفَّةِ بحال الثِّقَلِ اللَّازم للحامل عند صلاح حَمْلِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.
(4) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4513/8.
(5) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 336/2.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 305/13، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 352.

نكتةُ الكنايةِ في ﴿أَثْقَلَت﴾:

دلالـةُ الثِّـقَـلِ على كِبَرِ الجنين وكُـلْـفَـةِ أمِّـه بحَمْله

﴿أَثْقَلَت﴾؛ أي: فلمَّا دخلت في ثِقَل الحملِ، بسببِ كِبَرِ الجنين في بطنها، يُقال لغةً: أثقلتِ الحاملُ؛ أي: استبانَ حملُها، فهي مُثْقِلٌ، وإنَّما يَسْتَبِينُ حَمْلُها إذا كَبُرَ الجنين في رحمها، فصار ثقيلًا، فالإثقال كنايةٌ عن كِبَرِ الجنين وثِقَلِ الحملِ وكُلفَتِه، يقال: أثقَلَ المريضُ، فهو مُثْقَلٌ[1].

دلالةُ الهمزةِ في ﴿أَثْقَلَت﴾:

الـدَّلالـةُ على الـدُّخـول في الثِّقَل وصيرورته

الهمزةُ في ﴿أَثْقَلَت﴾ للصَّيرورة، مثل: أورقَ الشَّجرُ، فهو كما يقال: أقربتِ الحاملُ، فهي مُقْرِبٌ؛ إذا أقرب إبَّانُ وَضْعِهَا[2]، كما يُقال: أثمرَ وألبنَ: إذا صار ذا ثَمَرٍ ولبنٍ، وقيل: إنَّها للدُّخول في زمانِ الفعل، أي: دخلت في زمان الثِّقَلِ، فـ﴿أَثْقَلَت﴾ حان وقتُ ثِقَلِ حملِها، ودخلت في الثِّقَل، كما يُقال: أصبح، وأمسى، إذا دخلَ في الصَّباح أو المساء[3].

بديعُ المطابقةِ بين الخِفَّةِ والثِّقَل:

تصويرُ الحالين المُتقابِلَين وما ينتجُ عن أثرِهما مِـنَ التَّـقابل الحاصل

المتبادرُ من الثِّقَل معناه الحقيقي، والتَّقابُلُ بينه وبين المعنى الأوَّل للخِفَّة ظاهِرٌ، وقد يرادُ به الكَرْبُ ليقابل الخفَّةَ بالمعنى الثَّاني، وهو الدُّخولُ في الثِّقَل لكنَّ المتبادرَ في الموضعين المعنى الحقيقيُّ[4]، مع ما يوحيه هذا التَّقابلُ من تقابل بَيْنَ أثرِهِ من عدم التَّأذِّي بحال الخِفَّة والفرح بحمله، وبَيْنَ الوَهَنِ والتَّعب والكرب والخوف عليه عند الثِّقَلِ.

فائدةُ التَّأنيثِ والتَّذكير في ضَمائر الأفعال في الآية:

وذلك في قوله: ﴿لِيَسْكُنَ﴾ ﴿تَغَشَّاهَا﴾ و﴿حَمَلَتْ﴾ ﴿فَمَرَّتْ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 239/4.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.

﴿أَثْقَلَت﴾، فجاء ذكْرُ الضَّميرِ المرفوعِ في فِعْلَيْ (يسكن) و(تَغَشَّى): باعتبار كونِ النَّفسِ الواحدة المذكورة آنفًا ذَكَرًا، وأنَّث الضَّميرَ المنصوب في ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾، والمرفوعَ في ﴿حَمَلَتْ﴾ و﴿فَمَرَّتْ﴾: باعتبار كونِها مضافةً لـ (زوجها)، وقد عُلِمَ أنَّ المقصودَ بهِ الأنثى، وهو عكسٌ بديعٌ في نَقلِ ترتيب الضَّمائر[1]، وهو دالٌّ على أنَّ كلًّا من الزَّوج والمرأة يقوم بما أُوكلَ إليه، وما هُيِّىء له من أمر النَّسل.

بيانُ بديعِ نقلِ ترتيبِ الضَّمائرِ بحسبِ المذكورِ آنفًا

دلالةُ لفظ ﴿دَّعَوَا﴾ وَعَوْدُ الضَّمير فيها:

قولهُ تعالى: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾؛ أي: فلمَّا حانَ قُرْبُ وَضْعِها، وكَبُرَ الولدُ في بطنها، تَوَجَّهَا إلى الله ربِّهما[2].

وظاهرُ قولهِ: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أنَّ كُلَّ أبوين يَدعوان بذلك، فإنْ حُمِلَ على ظاهرِهِ؛ قُلْنَا: لا يخلو أبوان - ولو مشركين - من أن يَتمنَّيا أن يكون لهما مِنَ الحَمْل مولودٌ صالحٌ، سواءٌ نطقَا بذلك، أم أضمراه في نفوسِهما، فإنَّ مُدَّةَ الحَمْل طويلةٌ، لا تخلو أن يَحْدُثَ هذا التَّمنِّي خلالها، وإنَّما يكونُ التَّمنِّي منهم على اللهِ، فإنَّ المشركين يعترفون لله بالرُّبوبيَّة، وبأنَّه هو خالق المخلوقات ومُكَوِّنُها، ولا حَظَّ للآلهة إلَّا في التَّصرُّفات في أحوال المخلوقات، كما دلَّت عليه مُحاجَّاتُ القرآن لهم، نحوُ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: 34]، وإن حُمِلَ دعَوَا على غير ظاهرِهِ؛ فتأويلُه أنَّه مَخْصوصٌ ببعض الأزواجِ الَّذين يَخْطُرُ ببالهِم الدُّعاءُ[3].

شمولُ طالبِ الدُّعاءِ لكلِّ أبوين ولو مُشركين

فائدةُ الجمع بين وصف الألوهيَّة والرُّبوبيَّة في ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾:

ذَكرَ الاسمَ الأعظم في مقام الدُّعاء استحضارًا؛ لأنَّ المدعوَّ هو الذي له جميعُ الكمال، فهو قادرٌ على ما دعوا به؛ لأنَّه قادرٌ على كلِّ

تأكُّدُ الوصفَين في مقام الدُّعاء استحضارًا لعظمة المدعوِّ وإحسانِهِ وامتنانِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(2) أحمد مصطفى المراغي، تفسيره: 138/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 213/9.

شيء، وذكرَ صفةَ الإحسان رجاءَ القَبول والامتنان، فقال: ﴿رَبَّهُمَا﴾، أي: الذي أحسنَ إليهما[1].

وإجراءُ صِفةِ الرّبوبيّة المؤذِنةِ بالرِّفقِ والإيجادِ، في قَولِه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ للإشارةِ إلى استحضارِ الأبوَينِ هذا الوَصفَ عند دُعائِهما اللّه، أي: يذكُرُ أنَّه باللَّفظِ، أو ما يُفيدُ مَفادَه[2]، فقد تَبيَّنَ الحملُ، وتعلَّقت به قلوبُ الزَّوجين، وجاء دور الطَّمع في أن يكون المولودُ سليمًا صحيحًا صَبوحًا، وعند الطَّمع تستيقظ الفطرةُ، فتتوجَّهُ إلى اللّهِ، تَعْترفُ له بالرُّبوبيَّة وحده.

نُكتةُ إضافة الرَّبِّ إلى ضميرهما:

الإشـــارةُ إلى تـصـديـرِهـمـا للدُّعاء بالرُّبوبيَّة وسؤالِ الله بها

﴿رَبَّهُمَا﴾، أي: مالكُ أمرِهما، الحقيقُ بأن يُخصَّ به الدُّعاءُ، إشارةٌ إلى أنَّهما قد صدَّرا به دعاءَهما، كما في قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23] الآية[3]، فإجراءُ صفةِ ربِّهما المؤذنةِ بالرِّفق والإيجاد: للإشارة إلى استحضار الأبوين لهذا الوصف عند دعائهما اللّه، أي: يذكر أنَّه باللَّفظ، أو ما يُفيد مفاده، ولعلَّ العربَ كانوا إذا دعوا بصلاح الحَمْلِ؛ قالوا: ربَّنَا آتنا صالحًا[4]، فإضافةُ لفظة الرَّبِّ إلى ضميرِهما تشريفٌ لهما.

فائدةُ حذفِ مُتَعلَّقِ الدُّعاءِ في قوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾:

التَّعـويـلُ على شهادة الجملةِ القسميَّةِ به

قولُه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، أي: دَعَواه تعالى أن يُؤتيَهما صالحًا، ووعدَا بمقابلته الشُّكْرَ على سبيل التَّوكيدِ القسَميِّ، وقالا أو قائلين: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، فمتعلَّقُ الدعاءِ محذوفٌ تعويلًا على شهادة الجملةِ القسَمية به[5]، فالحذفُ من بلاغة الإيجاز.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 213/9.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 303/3.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 213/9.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 303/3.

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾:

قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ بيانٌ لـ﴿دَّعَوَا﴾ على الاستئناف البَيانيِّ، كأنَّه قيل: ماذا قالا في دعائهما؟ أو فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾[1]، ويمكن أن تكون جملةُ لئن آتيتَنا تفسيريَّةً لجملة ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾[2]، فالفصلُ على هذا لكمال الاتِّصالِ كونُ الجملة الثانية مُفسِّرةً للجملة الأولى.

تفسيرُ الإجمالِ الحاصلِ ممَّا سبق من الدُّعاء وتفصيلُهُ

معنى اللَّامِ في ﴿لَئِنْ﴾ ودلالتُها:

اللَّامُ في ﴿لَئِنْ﴾: مُوَطِّئَةٌ للقسم، وتُسمَّى أيضًا اللَّامَ المُؤَذِنَةَ[3]، أي: دعا آدمُ وحواء ربَّهما ومالكَ أمرِهما أن يؤتيَهما ولدًا صالحًا، حالفين بالله بقولهما: والله ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، أي: والله لئن أعطيتَنا - يا إلهَنا - ولدًا صالحًا[4].

توكيدُ جوابِ القَسمِ وتقويتُهُ

فدعواهُ تعالى أن يؤتيهما صالحًا، ووعدا بمقابلتِهِ الشُّكرَ على سبيل التَّوكيدِ القسميِّ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ترتيبُ هذا الجوابِ على الشَّرطِ المذكورِ، لما أنَّهما قد عَلِمَا أنَّ ما علَّقا بِهِ دعاءَهما أُنموذَجٌ لسائرِ أفرادِ الجنسِ، ومعيارٌ لها ذاتًا وصفةً، فوجودُه مُستتبِعٌ لوجودِها، وصلاحُه مستلزِمٌ لصلاحها، فالدُّعاءُ في حقِّه متضمِّنٌ للدُّعاء في حقِّ الكلِّ مستتبِعٌ له، كأنَّهُما قالا: لئن آتيتنا وذرِّيَّتَنا أولادًا صالحين[6].

بيانُ أنَّ هذا الدُّعاءَ أنموذجٌ يستَتْبِعُ سائرَ الذُّريَّةِ الصُّلبيَّةِ مهما نزلَت

غرضُ تنكير ﴿صَٰلِحًا﴾ وحذفُ الموصوف:

ولدا صالحًا، أي: تامَّ الخَلْقِ يصلح للقيام بالأعمال النَّافعة

شُمولُ الصَّلاحِ وعُمومه لكلِّ معاني الصَّلاح

(1) محمود صافي، الجدول: 144/9.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 508/3.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 145/4.
(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 281/10.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 303/3.

التي يعملُها البَشَرُ[1]، أي: أعطيتنا ولدًا سويًّا صحيحَ الجوارح[2]، سليمًا من فساد الخِلْقَةِ كنقص بعض الأعضاء، قويَّ البِنيةِ، سليم الفطرة[3]، وقيل: ولدًا ذكرًا؛ لأنَّ الذُّكورةَ من الصَّلاح والجودة[4]، فعلى هذا فالتَّنكيرُ للتَّفخيم والتَّعظيم.

والصَّلاح يشمل معانيَ كثيرةً منها الصَّلاح في استواء الخَلق، ومنها الصَّلاحُ في الدِّين، والصَّلاح في العقل والتَّدبير، فيقال: إنَّهما قالا: لئن آتيتنا صالحًا بجميع معاني الصَّلاح[5].

دلالةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾:

رغبةٌ في إجابةِ الدُّعاء وتَحَقُّقِ الرَّجاءِ

﴿لَّنَكُونَنَّ﴾، أي: نحن أو نحن ونَسْلُنا[6]، لنكونَنَّ من المخلِصين لك في الشُّكر[7]. وقد جمعت هذه الجملةُ عِدَّةَ مؤكِّداتٍ: فاللَّام الواقعة في جوابِ القسم، ونون التَّوكيد الثقيلةُ في (نكونَنَّ)، فهو فعل مضارعٌ ناقصٌ مبنيٌّ على الفتح لاتِّصاله بنونِ التَّوكيد الثَّقيلة[8]، والجملة الفِعْليَّةُ: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ جوابُ القسم المحذوف، وجواب الشَّرط محذوفٌ لدلالة جواب القسم عليه[9]، وهذا التَّتابعُ في التَّأكيد دالٌّ على الرَّغبة في قَبولِ الدُّعاءِ بصلاح الولد؛ لأنَّه بصلاحِه صلاحُ حياة الزَّوجين.

غرضُ التَّعبير بالمُضارِعِ في: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾:

التـزامُ الـدَّوام والاستمرار على شُكر النِّعَم بعد حصولها

﴿لَّنَكُونَنَّ﴾: لَنَصيرنَّ شاكرين لنعمائك دائبين على شكرِها، وذلك لأنَّهما لم يريا أحدًا من جنسِهما، ولم يكن إذ ذاك غيرُ الجنِّ والحيوان والوحش والطَّير[10].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 138/9.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 574/1.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 795/1.
(4) الزمخشري، الكشاف: 186/2.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 97/9.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(7) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 1653/9.
(8) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 145/4.
(9) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 682/3.
(10) الدِّينوري، تفسير ابن وهب عبد الله بن محمد: 28/1، وملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 467/1.

معنى (من) ودلالتُها في قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: من جملةِ الشَّاكرين لنعمك الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة، فيكون شُكري وشُكر حواءَ على إيتاء الولد الصَّالح، وسائرِ النِّعم علينا، وكلٌّ شاكر يَشْكرك على ماله من النِّعم[1]، فجيء بـ(من) ليُشيرَ إلى أنَّ في النَّاس قومًا شاكرين، فإن كانوا فنحنُ من جملتهم، وهو من قبيل الكناية التي هي إثباتُ الشَّيء بإثبات مَلزومه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريح.

إثباتُ شُكرِهما بإثباتِ ملزومهِ أنَّ في الخلق أقوامًا شاكرين

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

أي: نحنُ وأولادنا على نعمتِكَ علينا مِنَ الرَّاسخين في الشُّكرِ لك على إيتائِك[2]، وقيل: على نعمائِك التي من جملتِها هذه النِّعمةُ[3]، فـ(الـ) إمَّا أن تكونَ عهديَّةً يرادُ بها الشَّاكرون المعروفون، وإمَّا أن تكونَ جنسيَّةً استغراقيَّةً، أي: مِن جنسِ الشَّاكرين.

الدَّلالةُ على رُسوخهم في الشُّكر وشمولِه منهم ومن ذرِّيَّتهم

معنى الفاءِ في ﴿فَلَمَّآ﴾ ودلالتُها:

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الفاءُ كسابقاتها عاطفةٌ تعقيبيَّة، وأشار بها هنا إلى قُرب الولادة من الدُّعاء[4].

الإشارةُ إلى قُربِ الولادةِ مِنَ الدُّعاء

معنى (لمَّا) ودلالتُها في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾:

(لمَّا) ظَرفُ زمانٍ، بمعنى: حِين تضمَّن معنى الشَّرط في محلِّ نصبٍ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿جَعَلَا﴾[5] لمّا آتاهما ما طلباه أصالةً واستتباعًا من الولد وولد الولدِ ما تناسلوا؛ وقع منهم الشِّرك[6].

بيانُ حلولِ وقت الإتيانِ وحصولِه حقيقةً

(1) محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير: 252/5.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 129/5، والمظهري، التفسير المظهري: 442/3.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(5) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 789/2.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 304/3.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّةِ:

بيـانُ الانتـقـالِ مـن الـنَّـوعِ إلى الجنسِ

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، أي: فحين أعطاهُما سبحانه الولدَ الصَّالحَ الذي كانا يتَمنَّيانه؛ جَعَلَا للهِ تعالى شُركاء في هذا العطاء، وأَخَلَّا بالشُّكر في مقابلةِ هذه النِّعمة أسوأَ إخلالٍ، حيث نسبوا هذا العطاءَ إلى الأصنام والأوثان، أو إلى الطَّبيعة كما يزعم الطَّبعيون، أو إلى غير ذلك ممَّا يتنافى مع إفراد الله تعالى بالعبادة والشُّكر، فكانتِ النَّتيجةُ عدمَ الوفاءِ لله فيما عاهداهُ عليه[1].

فأخلَّا بالشُّكر في مقابلة نعمةِ الولد الصَّالح أسوأ إخلالٍ؛ إذ استبدلوه بالإشراك[2]؛ فسمُّوا عبدَ العُزَّى وعبد مناف وعبد الدَّار، فالآية إخبارٌ بالغيب في أحوال بني آدمَ ممَّن كفر منهم وأشرك، ولا يَصِحُّ في آدم وحوَّاء هذا الشِّركُ؛ لعصمة الأنبياء[3].

وهذا انتقالٌ مِنَ النَّوعِ إلى الجنس، فإنَّ أوَّلَ الكلامِ في آدمَ وحوَّاءَ، ثُمَّ انتقل الكلام في الجنس، ولا شكَّ أنَّ هذا موجودٌ في الذُّرِّيَّة كثيرًا، فلذلك قرَّرهم اللهُ على بطلان الشِّرك، وأنَّهم في ذلك ظالمون أَشَدَّ الظُّلْمِ، سواء كان الشِّركُ في الأقوال، أم في الأفعال[4]، فذكرَ آدم وحواء أوَّلًا كالتَّوطئة لما بعدَهما مِنَ الوالدين، وهو كالاستطراد من ذِكر الشَّخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5] الآية، ومعلوم أنَّ المصابيحَ - وهي النُّجومُ التي زُيِّنت بها السَّماءُ - ليست هي الَّتي يُرمى بها[5].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/453.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 5/235.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/426.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/475.

غرضُ تنكيرِ ﴿صَٰلِحًا﴾ وحذفِ الموصوف:

الـدَّلالـةُ على عموم الجِنْسِ

﴿صَٰلِحًا﴾، أي: جنسُ الولدِ الصَّالح في تمام الخَلق بدنًا وقوَّةً وعقلًا، فكثروا في الأرض، وانتشروا في نواحيها ذكورًا وإناثًا[1]، والذي دلَّ على عمومهِ وعدم اختصاصهِ بقائِلَيْنِ مُحَدَّدَيْنِ أنَّه إذا تقدَّم الاسمُ النَّكرةُ، فأعيدَ ذكرُه، فإنَّما يُعادُ مُعرَّفًا بالألف واللَّام، كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [سورة المزمل: 16: 15]، وكذلك قال سيدنا عمر ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٦﴾ [سورة الشَّرح: 6: 5] لن يغلبَ عُسْرٌ يُسرين؛ لأنَّه إنَّما أُعيد العسرُ مُعَرَّفًا وكانَ شيئًا واحدًا، إذْ كان في كلامٍ واحدٍ، وهنا في كلامين لِقائِلَيْنِ، فَنُكِّرَ[2]، والتَّنكيرُ للتَّفخيم والتَّعظيم.

معنى اللَّامِ في ﴿لَهُۥ﴾ ودلالتُها:

بيانُ مُنازَعتهم لله فيما هو حقٌّ له دونَ غيرِهِ من توحيدِ العبادة

﴿لَهُۥ﴾ اللَّامُ تعليليَّةٌ أو للتَّخصيص، أي: جَعَلا للّهِ شركاءَ في ذلك الولدِ الَّذي انفردَ اللّهُ بإيجادهِ، والنِّعمة به، وأقرَّ به أعينَ والدَيه، فعبَّداه لغيرِ اللّهِ[3].

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾:

بيانُ رُسوخِهم في جعلِ الشِّرك ونسبةِ النِّعمة إلى غيرِ المنعِم

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، أي: فيما أعطاه، فأظهرَا ما كان راسخًا في أنفسِهما منه، وقد نُسِبَ هذا الجعلُ عند المحقِّقينَ من علماء التَّفسيرِ للمشركين وكفرة النَّاس، قال الحسن البصريُّ: "هم اليهودُ والنَّصارى رزقَهم الله أولادًا، فَهَوَّدوا، ونصَّرُوا، وقال ابن كثير: أمَّا نحن فعلى مذهب الحسن البصريِّ في هذا، وأنَّه ليس المراد من السِّياق آدمَ وحوَّاءَ، وإنَّما المُراد من ذلك ذريَّتُه، ولهذا قال: ﴿فَتَعَٰلَىٰ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 272/2.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.

﴿ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1]، والتَّقديمُ لشبه الجملةِ: إمَّا للتَّخصيص، وإمَّا لتعجيل المضرَّةِ.

سِرُّ تنكير ﴿شُرَكَآءَ﴾ وجمعها:

بـيـانُ عـمـومِ شركهم وتنوُّعِه

التَّنكيرُ للتَّعميمِ والتَّحقيرِ، فإمَّا أن يُسمِّياهُ بعبدِ غيرِ اللّه كـ (عبد الحارث) و(عبد العُزى) و(عبد الكعبة) ونحو ذلك، أو يُشْرِكا في اللّه في العبادة، بعد ما مَنَّ اللّهُ عليهما بما مَنَّ به، من النِّعَم التي لا يُحْصيها أحدٌ من العباد[2].

وقد يكون المُراد بالشُّركاء: إبليسَ اللَّعين أخزاهُ اللّه! وعبَّر بالأول، وهو الجمع عن المفرد على سبيل المبالغة[3]، فأراد بلفظ الجمع الشيطان للمبالغة، يعني: جعلاهُ شريكًا له تعالى[4].

توجيهُ القراءاتِ المتواترةِ في ﴿شُرَكَآءَ﴾ ودلالاتُها:

بـيـانُ جمعهم بـيـن شِـرْكِ الطَّاعةِ والعبادة

قولهُ تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ اختلف القُرَّاءُ في هذا الموضعِ، فقرأ نافع وأبو جعفر، وأبو بكر عن عاصم بكسر الشِّين، وإسكان الرَّاء مع التَّنوين من غير مدٍّ، ولا همز: ﴿شِرۡكًا﴾، والتَّقدير: ذوي شِرْكٍ[5]، وقرأ الباقون بضَمِّ الشِّين وفَتْحِ الرَّاء والمدِّ، وهمزةٍ مفتوحة من غير تَنْوينٍ: ﴿شُرَكَآءَ﴾[6].

فعلى قراءةِ ﴿شِرۡكًا﴾، فإنَّ الشِّركَ لا يخلو عنه أحدٌ من الكفَّار في العرب، وبخاصَّةٍ أهلُ مكَّةَ، فإنَّ بعض المشركين يجعل ابنه سادنًا لبيوت الأَصنام، وبعضهم يَحْجُر ابنَهُ إلى صنم ليحفظه، ويرعاه، وخاصَّةً في وقت الصِّبا، وكلُّ قبيلةٍ تنتسب إلى صَنَمِها الذي تَعبده،

(1) المراغي، تفسير المراغي: 139/9.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 684/3.
(4) السيواسي، عيون التفاسير للفضلاء السماسير: 98/2.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(6) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 273/2.

وكأنَّ المعنى: فلمَّا آتاهما صالحًا؛ جعلا له نصيبًا لم يخلِّصاه له، والتَّفاسير على ذلك تدلُّ، على أنَّ ﴿شِرْكًا﴾، أي: في طاعتهِ، ولم يكن في عبادتهِ، فمَن قرأَ ﴿شِرْكًا﴾ أي: جعلا لغيرهِ شِركًا؛ لأنَّهما لا ينكران أن يكونَ الأصلُ له جلَّ وعزَّ، فالشِّرك يُجعل لغيره، وهذا على معنى: جعلا له ذا شركٍ، فَحُذِفَ (ذا)[1].

وقرأ الباقون ﴿شُرَكَآءَ﴾ على (فُعَلاءَ) جمع شريكٍ، وحجَّتُهم في ذلك أنَّ الوالدين كانا يعتقدان أنَّ ولدَهما من رزقِ اللّه وعطيَّتِهِ ثُمَّ سمَّياهُ، فجعلا لغيرهِ فيه شُركاءَ بالاسم[2]، فبعضُهم يُسمِّي ابنَه: عبدَ كذا مُضافًا إلى اسمِ صنمٍ، كما سَمُّوا عبد العُزَّى، وعبد شمس، وعبد مناة، وعبد ياليلَ، وعبد ضخمٍ، لأنَّ الإضافة على معنى التَّمليك والتَّعبيد[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ (ما) دون (مَن):

قولهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ مرادٌ منه مع الإخبارِ التَّعجيبُ من سَفَهِ آرائهم؛ إذ لا يَجعَلُ رشيدُ الرَّأيِ شريكًا لأحدٍ في مُلكِه وصُنعِه بدونِ حَقٍّ؛ فلذلك عُرِّفَ المشروكُ فيه بالموصوليَّةِ، فقيل: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ دونَ الإضمارِ، بأن يُقال: (جعَلا له شُركاءَ فيه)؛ لِما تؤذِنُ به الصِّلةُ من فَسادِ ذلك الجَعلِ، وظُلْمِ جاعِلِه، وعدمِ استحقاقِ المَجعولِ شَريكًا لِما جُعِلَ له، وكُفرانِ نِعمةِ ذلك الجاعِلِ؛ إذ شكَرَ لِمَن لم يُعطِه، وكفَرَ مَن أعطاه، وإخلافِ الوَعدِ المؤكَّد[4]، فـ(ما) تدلُّ على العموم لتشمل كلَّ الأعطيات.

الإيـذانُ بفسادِ ذلـك الـجَـعْـلِ وظُلْمِ جاعِلِهِ

وجعْلُ الموصولِ (ما) دون (مَن) باعتبارِ أنَّه عطيَّةٌ، تشمل المولودَ وغيره، أو لأنَّ حالةَ الطُّفولةِ أشبَهُ بغَيرِ العاقِلِ[5].

الإشـارةُ إلى أنَّ الـولـدَ في حـالِ طفولتِهِ أشبهُ بغير العـاقـل، وأنَّـــه عـطـيَّـةٌ ربانيَّة

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 304.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 304.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 213/9 - 214.

بلاغةُ الإطنابِ في وصف تكوين النَّسل:

التّدليل على حكمة الله وقدرته

وقد سلَكَ في وصفِ تَكوينِ النَّسلِ مَسلَكَ الإطنابِ؛ لِما فيه من التَّذكيرِ بتلك الأطوارِ الدَّالَّةِ على دقيقِ حِكمةِ اللهِ وقُدرتِه، وبِلُطفِه بالإنسانِ[1].

موقعُ قولِه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ ممَّا قبله:

استئنافُ تنزيهٍ لله تعالى يقتضيه المقامُ تَوْبيخًا للمُشركين وتعجيبًا من حالهم

هذا ابتداءُ كلامٍ، وأراد به إشراكَ أهل مكَّةَ، وحَمْلُ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية... على الابتداء ممَّا يستدعيه السِّباقُ والسِّياقُ، وبه صرَّح كثيرٌ من أساطين الإسلام[2]، فهو تنزيهٌ فيه معنى التَّعَجُّب؛ لأنَّ هذه الآيةَ سيقت توبيخًا للمشركين في جنايتهم، ونقضهم ميثاقهم، في جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه، وذلك أنَّه تعالى ذكر ما أنعم عليهم من الخلق من نفسٍ واحدة، وجَعَلَ أزواجَهم من أنفسهم ليأنسوا بهنَّ، ثُمَّ إنشاءَه إيَّاهم بعد الغشيان، متدرِّجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضَّعف إلى القوَّة، ثُمَّ بَيَّن إعطاءهم المواثيقَ إن آتاهم ما يطلبون، ووُلِدَ لهم ما يشتهون، ليكونوا من الشَّاكرين، ثُمَّ أخبر عن غَدْرِهِمْ وكُفرانِهم هذه النِّعم التي امتَنَّ سُبحانه بها عليهم، ونقضِهم ميثاقَهم في إفرادِه بالشُّكر، حيث أشركوا معه غيره في ذلك[3]، فَتَنَزَّهَ سبحانه، وتَقَدَّس عن شرك هؤلاءِ الأغبياءِ الجاحدين الذين يُقابلون نِعَمَ اللهِ بالإشراك والكفران[4].

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى﴾:

إنشاءُ التَّنزيهِ تَرَتُّبًا عمَّا أحدثوه من الشِّركِ بعد شهودهم قدرته وآثار نعمته

موقعُ فاء التَّفريع في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ موقعٌ بديعٌ؛ لأنَّ التَّنزيهَ عمَّا أحدثوهُ منَ الشِّرك يَتَرَتَّب على ما قبلَه من انفراده بالخَلقِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 212/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 130/5.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 235/5.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 453/5.

العجيبِ، والمِنَنِ العظيمة، فهو مُتعالٍ عن إشراكهم لا يليق به ذلك، وليس له شريكٌ بحقٍّ، وهو إنشاءُ تنزيهٍ غيرُ مقصود به مُخاطَبٌ[1].

والفاءُ لترتيبه على ما فُصِّلَ من قدرته سبحانه وآثارِ نعمته الزاجرة عن الشِّرك الدَّاعية إلى التَّوحيد[2].

دلالةُ قولهِ: ﴿فَتَعَٰلَى﴾:

بيانُ تَقَدُّسِ اللهِ عن شِرْكِهِمْ كُلِّهِ ما ذُكِرَ هُنا وما لم يُذْكَر

تعالى: فعلٌ ماضٍ، أي: سَمَا وتَقَدَّس وارتفع الله سبحانه عن شركهم، وتعاظمَ وتنزَّه أن يكونَ له شريك[3]، فهو أعلى وأجلُّ عَمّا يُشْرِكُونَ؛ فلمَّا لم يَضُرَّ المشركون بالإشراك إلا أنفسَهم، سبَّب عن ذلك قولُهُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: بما له من صفاتِ الكمالِ التي ليست لغيرِهِ تعاليًا كثيرًا[4] عن إشراكهم كُلِّه: ما ذُكِرَ منه آنفًا من إشراكِ الوالدَين مع اللهِ فيما آتاهما، وما لم يُذْكَر مِن أصناف إشراكِهم[5].

دلالةُ عَودِ ضميرِ الجمع في ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

بيانُ عَوْدِ الضَّميرِ على كُلِّ المشركين على تَنَوُّعِ شِرْكِهم

والضَّميرُ في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ يعود على أولئك الآباء الذين جعلوا لله شركاء، هذا، والمحقِّقون من العلماء يرون أنَّ هاتين الآيتين قد سيقتا توبيخًا للمشركين حيثُ إنَّ اللهَ تعالى أنعم عليهم بخلقهم من نفسٍ واحدة، وجعل أزواجَهم من أنفسِهم ليأنسوا بهنَّ، وأعطاهم الذُّرِّيَّة، وأخذ عليهم العهودَ بشكرِهِ على هذه النِّعم، ولكنَّهم جَحَدُوا نِعَمَهُ، وأشركوا معه في العبادة والشُّكر آلهةً أخرى[6].

فضميرُ الجمع في قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ عائدٌ إلى المشركين الموجودين؛ لأنَّ الجملةَ كالنَّتيجة لما سبقها من دليل خَلْقِ الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 130/5.
(3) الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: 201/9.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 453/5.

إيَّاهم[1]، ولو أراد آدم وحواء - كما قاله بعضهم - لقال ﷺ: (فتعالى اللّه عمَّا يُشركان) على التَّثنية لا على الجمع[2].

دلالةُ تغليب جمع المُذَكَّرِ على المؤَنَّثِ في قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

الإيـذانُ بعظم شِـركِـهـم وفَظَاعَتِهِ

في قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ جيء بصيغة جمع المُذَكَّرِ، وتغليبُها على المؤنَّث إيذانًا بِعِظم شِرْكِهم[3]، ولا شَكَّ أنَّ مُخاطبة الرِّجال والنِّساء بصيغة واحدة تَعمُّهمَا جميعًا هو الأبلغ والأفصح، وقد اتَّفق العرب الذين نَزَلَ القرآن بلسانهم - على مُخاطبة الرِّجال والنِّساء مُجتمعين بصيغة المذكَّر لا المؤنث[4]؛ لِخِفَّة المذكَّرِ عندهم على المُؤَنَّث، وتَقَدُّمِهِ عليه في لسانهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَلقُ والجعْلُ:

الجعْلُ في اللُّغة: التَّهيئةُ والصَّنْع، وتصيير الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالة[5]، والخَلق تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[6]، وقد ورد كِلا اللَّفظين في القرآن الكريم بمعانٍ مُتقاربة، ولعلَّ الفارق الدَّلالي في الاستخدام القرآنيِّ للفعلين (جَعَلَ - خَلَقَ) يتَّضِحُ بجلاء تامٍّ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] فعبَّر عن السَّماوات والأرض بلفظ (خَلَقَ)؛ لأنَّ السَّماوات والأرض أجرامٌ تحتاج إلى التَّقدير والإيجاد ابتداءً.

وعبَّر عن الظُّلمات والنُّور بلفظ (جَعَلَ)؛ لأنَّ الظُّلماتِ والنُّورَ مخلوقاتٌ من شيء آخرَ، إذ هُما تبعٌ للسَّماوات والأرض، فناسب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 281/2، والبقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 130/5.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 637/6.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جعل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 328/1، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 127.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/2.

ذلك التَّعبيرُ بالفعل (جَعَلَ) الدَّالِّ على التَّهيئة وإنشاء شيءٍ من شيء سابقٍ، يقول الزَّمخشريُّ: "والفرق بين الخَلْقِ والجَعْل أنَّ الخَلْقَ فيه معنى التَّقدير، وفي الجَعْلِ معنى التَّضمين، كإنشاء شيء من شيءٍ، أي: تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان"، ونَخْلص ممَّا سَبَقَ إلى أنَّ الاستخدام القرآنيَّ لِكَلِمَتَيْ (جَعَلَ - خَلَقَ) يُظهِر اشتراكهما في معنى: إحداث الشَّيءِ، والملمحُ الدَّلالي المُمَيِّز لكلمة (خَلَقَ) هو: التَّقدير والأوَّليَّة، في حين أنَّ الملمح الدَّلاليَّ المميِّزَ لكلمة (جَعَلَ) هو: التَّضمين والتَّهيئة[1].

الشُّركاءُ والأندادُ:

الشَّركةُ والمُشاركة: خَلْطُ المِلْكَيْن، وقيل: هو أن يُوجد شيء لاثنين، فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشَّيء أو معنًى كمُشاركة[2]، وأَصْلُ (شرك) في اللُّغة: يَدُلُّ على مُقارَنةٍ وخِلافِ انفرادٍ، يقالُ: شَرِكَه في الأمرِ وأشرَكَه شَرِكًا وشَرِكةً؛ إذا صارَ له شَرِيكًا[3]، والشِّركُ: اعتقادُ شَريكٍ للّهِ في ألوهيَّته، وهو الشِّرْكُ الأعظَمُ، وهو شِرْكُ الجاهليَّةِ، ويليه في الرُّتبةِ اعتقادُ شَريكٍ للّهِ تعالى في الفعلِ، وهو قَولُ مَن قال: إنَّ موجودًا ما غيرَ اللّهِ تعالى يستَقِلُّ بإحداثِ فِعلٍ وإيجادِه، وإن لم يُعتَقَدْ كَونُه إلهًا[4].

الشَّريكُ أعمُّ من النِّدِّ، وفي النِّدِّ معنى المساواة والمماثلة

أمَّا النِّدُّ؛ فهو العِدْلُ والمِثْلُ، يُقال: (لَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ)، أي: لست له بمثل في شيء من معانيه ولا عدل، وكلُّ شيء كان نظيرَ الشيء وشبيهًا له؛ فهو له ندّ[5]، والنِّدُّ: خُصَّ بالمخالف المماثِل في الذَّات

(1) العسكري، الفروق، ص: 184.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 259، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 266/2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 265/3، والرّاغب، المفردات، ص: 451، وابن الأثير، النهاية: 466/2، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 181/5.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ند)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 155/4، وابن جرير، جامع البيان: 368/1.

والجوهر أَو القُوَّة، من نادَدْتُ الرَّجل؛ إذا خالفتُه[1]، ويَدُلُّ على أنَّ معنى النِّد: العِدْلُ قولُه تعالى أوَّلَ سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: 1] أي: يسوُّون به تعالى غيره ممن لم يخلق سماءً ولا أرضًا، ولا جعل ظلماتٍ ولا نورًا، ويجعلونه له ندًّا وشبيهًا في العبادة والطَّاعة، والمحبة والذُّل، والخوف والرَّغبة والرَّهبة، فيحبُّونهم كما يحبُّ المؤمن الله، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: 165].

وليس يلزم في النِّدية المُماثلةُ من كلِّ وجه، والمناظرةُ في كلِّ صفة، بل يكفي فيها التَّشبيه ولو بوجه واحد، فإنَّك تقول: فلان ندُّ فلان، إذا كان مماثلًا له في السِّنِّ فقط، وإن لم يجتمع معه في أيِّ صفة أخرى، من اللَّون والعقل والعلم والدِّين، وقد رُوِيَ عن ابن عبَّاس ﷺ قال: قال رجل للنَّبيِّ ﷺ: ما شاء الله وشِئْتَ، فقال: «جعلتني لله ندًّا؟ ما شاء الله وحده»[2].

والشِّرْكُ لا يتوقَّفُ على أن يعدِلَ الإنسانُ أحدًا بالله، ويُساويَ بينهما بلا فَرق، بل إنَّ حقيقةَ الشِّرْكِ أن يأتيَ الإنسانُ بخِلالٍ وأعمالٍ خَصَّها اللهُ بذاته العَلِيَّة، وجعَلَها شِعارًا للعُبوديَّة، لأحَدٍ مِنَ النَّاس، كالسُّجودِ لأحَدٍ، والذَّبح باسمه، والنَّذرِ له، والاستغاثة به في الشِّدَّة، واعتقادِ أنَّه حاضِرٌ ناظِرٌ في كُلِّ مكانٍ، وإثباتِ قُدرةِ التصَرُّفِ له، وكُلُّ ذلك يَثبُتُ به الشِّركُ، ويُصبِحُ الإنسانُ به مُشركًا، وإن كان يعتَقِدُ أنَّ هذا الإنسانَ أو المَلَكَ أو الجِنِّيَّ الذي يسجُدُ له، أو يذبَحُ أو يَنذِرُ له، أو يَستغيثُ به: أقَلُّ مِنَ اللهِ شأنًا، وأصغَرُ منه مكانًا، وأنَّ اللهَ هو الخالِقُ، وهذا عَبدُه وخَلْقُه، لا فَرْقَ في ذلك بين الأولياءِ والأنبياءِ، والجِنِّ والشَّياطينِ، والعفاريتِ والجِنِّيَّاتِ، فمن عامَلَها هذه المعاملةَ كان مُشرِكًا[3].

الإيتَاءُ وَالإِعْطَاءُ:

لا يكاد أهل اللُّغة يفرِّقون بين الإيتاء والإعطاء، فهما بمعنى واحد عند كثيرٍ من أصحاب المُعْجَمات[4]، لكن نجد في الاستعمال القرآنيِّ بعض الفروق الدَّقيقة التي تُوحي ببلاغة

(1) الكفوي، الكليات، ص: 913، والرّاغب، المفردات: (ندد).

(2) رواه أحمد في المسند بأسانيد صحاح، عن ابن عباس، الحديث رقم: (1839) و(196)، والبخاري في الأدب المفرد، بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، الحديث رقم: (783).

(3) الدهلوي، تقوية الإيمان، ص: 54.

(4) الخليل بن أحمد، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أتى).

القرآن وعظمته، وذلك من حيث إنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له فعل مطاوع، تقول: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء آتاني، فأتيت، وإنَّما يُقال: آتاني فأخذت، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاء أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أضعفُ في إثبات مفعولِه مِمَّا لا مطاوِعَ له[1].

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ، ولا يُستعمل إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثِير والعظيمِ الشَّأْنِ

فالإيتاء أقوى من الإعطاء، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26] لأنَّ المُلك شيءٌ عظيم لا يُعطاه إلا مَن له قوَّةٌ، وكذا قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 171] لعظم الكتاب وشأنه[2].

كما أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يُنْتَقَلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منهُ، ومِنْ هذا البابِ عندَهُم قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّ فيه انتقالًا مِنْهُ إلى ما هو أعظَمُ مِنْهُ.

كما أنَّ في الإعطاءِ دليلًا على التَّمَلُّك بخلاف الإيتاء.

وأمَّا في خصوص الاستعمال القُرآنيِّ لِلَفْظَتَي (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُمَا فرقًا من جِهَتَيْن[3]: **إحداهما**: أنَّ الإيتاءَ لم يُستعمل إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثِير والعظيم الشَّأْن، كالقرآن الكريم، والتَّوراة، والمُلْك، والرَّحمة، بخلاف الإعطاء؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدِ مَا يدلُّ على الكثرَةِ.

الأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طِيبِ نفسٍ، بخلاف الإعطَاءِ؛ فَهُوَ مُطْلَقٌ.

(1) السُّيُوطِيُّ، الإتقان: 367/2.
(2) الكفوي، الكُلِّيات، ص: 212.
(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»